الكفاءة الأمنية لتخطيط مدينة الموصل
دراسة مقارنة بين مدينة الموصل القديمة والحديثة

يوسف حامد الملا *

ملخص البحث:

قَسم الباحث مدينة الموصل من حيث تخطيطها الحضري Urban Planning إلى جـزئين، يمثل الجزء الأول " **مدينة الموصل القديمة** " ذات النسيج العمراني المتكتلِ والأزقـة الـضيقة **(المتقاربة)**والمتعرجة – باستثناء بعض الشوارع التي فتحت خلال القرن الماضي مثـل شـارع الفاروق و نينوى – وهي مركز المدينة حالياً ونواتها الأساسية، إذ تعبر في معظم أجزاءها عـن حاجات ساكنيها الاجتماعية والأمنية وبعض الحاجات السكنية والاقتصادية والخدمية وغيرها. في حين يمثل الجزء الثاني " **مدينة الموصل الحديثة** " ذات النسيج العمراني المفكك **(المتباعد)**، بقية أجزاء المدينة، إذ تعبر اغلب أجزاءها عن وجهة نظر الشركات التخطيطية الغربية أو من تـأثر بهم من المهندسين والمسؤولين من أبناء جلدتنا.

وبما أن **مصادر القلق** (زعزعة الأمن) تنوعت في مدينـة الموصـل (جـيش الاحـتلال الأمريكي، الغرباء – عصابات الخطف والقتل –)، فان ضرورة توفير الشعور بالأمن في المدينة يعتمد على بعدين أساسيين:

* **البعد الاجتمـاعي:** إذ تقوى العلاقات الاجتماعية في مجتمع جزء المدينة القديم، وتضعف فـي مجتمع الجزء الحديث.

* **البعد التخطيطي (المكاني):** لم تجد مصادر القلق في جزء القديم من مدينة الموصـل، البيئـة المكانية المناسبة لتكثيف تواجدها، في الوقت الذي تركزت في جزء المدينة الحديث.

إلا أن هذا الطرح لا يعني بالضرورة أن المدينة القديمة أفضل – **تخطيطيـاً** – من الجـزء الحديث، بل إنها حققت **(كفاءة أمنية)** أكبر رغم ضعف قدرتها – حالياً – علـى تلبيـة حاجـات

* **مدرس مساعد/ قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب.**

مجتمعها (السكنية والاقتصادية والخدمية وسهولة الوصول...الخ) مقارنةً بالجزء الحـــديث الـــذي كان نقيضه.

The Security Efficiency In Planning Of Mosul city
Study Between The Old & Modern
Comparing Mosul City

Abstract

The Researcher has divided the mosul city ,regarding its architect planning , into two parts , The first part represent **(The old Mosul city)** which has the Agglomerate architect matrix & narrow lanes **(adjacent)** & zigzag way-Accept some street which had opened at the beginning of past century e.g. Al- faroq & Nenava streets-which are the center of the city nowadays& its basic nucleus ,It meet in most of its parts about the social & security needs ,and some (residential ,economic ,service ,&other) needs. The second part **(The modern mosul city)** which has the faraway architect matrix

(diverge) the rest parts of city , which represent the point view of the foreign planning companies.

Since the anxiety sources (the security unsettled) varied in mosul city **(U.S. army , Strangers - the kidnapping & murdering gangs -)** , So the necessity of saving of feeling in security depend on tow important factors:

*** The social factor:** when the social relationship strong then in the society of the old part & weakened in the society of the modern part.

*** The planning factor (spatial):** when the sources of anxiety cannot finding in the old part of city the fit special environment to condense its existence , while it is concentration in the modern part of city.

However , this idea doesn't mean the old city it better - in planning way – from the modern part , but it made bigger **(social & security)** efficiency , although its weak ability - recently – to meet its society needs (residential , economic , service , accessibility…etc) in comparing with the modern part which was in contrast to that

المقدمة:

ونحن نعيش في ظل الظروف الأمنية الراهنة نتلمس الحاجة للشعور بالأمن في مدننا، ومدينة الموصل– كمعظم المدن العراقية – تعاني من اضطراب شديد بالوضع الأمني، الأمر الذي جعل الفرد الموصلي يشعر بالقلق في معظم أجزاء المدينة، كان سببه زيادة مصادر القلق " زعزعة الأمن " الناجم عن جيش الاحتلال الأمريكي والعبوات الناسفة والسيارات المفخخة

وعصابات الخطف والقتل التي راحت تحصد أرواح العشرات يومياً. وكانت لمصادر زعزعة الأمن هذه المبررات المنطقية لان تتجه نحو أجزاء معينة من المدينة وتتمركز بها، وتضعف أو تختفي في أجزاء أخرى، لعب التخطيط الحضري للجزئيين **(القديم والحديث)** دوراً حاسماً فيه.

وقد شهدت مدينة الموصل في مراحل زمنية متعددة محاولات تخطيطية مختلفة لاستيعاب نموها الذاتي وزحف مجاوراتها الإقليمية نحوها. إلا أن تلك المحاولات في معظمها كانت تحمل في طياتها إرهاصات الغزو الثقافي والفكري القادم من الخارج، المتمثل بالخبراء والكوادر الأجنبية التي اعتمدتها الحكومات العراقية في تخطيط المدن، مستندةً على من تأثروا بهم من المخططين والمهندسين العراقيين الذين درسوا في الخارج.

فبعد ما كان تخطيط مدينة الموصل القديم–**والشاهد إلى يومنا هذا**–يمثل إجابات لصدى أفكار المجتمع وعاداته وتقاليده ومعتقداته وتراثه التاريخي[1]، اعترته تغييرات جذرية طالت في المقام الأول **احتوائيته** contexturality، وفي المقام الثاني **انتظام بنيته** وألغت نهاية المطاف **مشهديته**، وجدت كل ذلك دونما أي اعتبار للارتكازات الاجتماعية التي يجب أن تنبثق من هذه التغيرات، الأمر الذي أشاع ظاهرة الاغتراب[2] التي ألقت بظلالها على الدعامات الأساسية للعلاقات الاجتماعية فأصابتها بالفتور والضعف والوهن، فباتت مدننا أسيرة القوالب التخطيطية الغربية الجاهزة ذات الطابع المادي المتباعد **مكانياً واجتماعياً** والشوارع العريضة والمستقيمة التي تشكل البيئة الخصبة لمعظم أعمال العنف، فترتب عنه ضعف شعور الفرد بالانتماء للمكان أو التضامن مع مجتمعه وبالتالي قل الشعور بالأمن وزيادة القلق مع زيادة مبرراته وتنوعها.

المبحث الأول

مشكلة البحث:

جرت العادة في البحوث (الاجتماعية والاقتصادية والعلمية...الخ) أن توجد مشكلة محددة يميزها الباحث بشكل محدد دون غيره تكون منطلقاً لبحثه، إلا أن مشكلة البحث **(غياب الأمن)** عامة وواضحة ولا تخفى على صغير أو كبير في مجتمعنا، وخاصةً في ظل الظروف الاستثنائية التي يعيشها أبناء مدينة الموصل، حيث الاحتلال وعصابات القتل والخطف التي تعيث في الأرض فساداً، وفي الوقت الذي لم يسعف فيه تخطيط المدينة الحديث ساكنيه من هذه المخاطر، بل أصبح عبءً مضافاً يثقل كاهلهم، فكان حري بالباحث أن يتناول هذه المشكلة في أيطار تخصصه (التخطيط الاجتماعي "العمراني" للمدن) من حيث كفاءة تخطيط مدينة الموصل بجزءيها (القديم و الحديث) في توفير الحاجة الأمنية لساكنيها.

أهمية البحث:

ويأخذ البحث أهميته من معطيات الواقع المرير الذي تعيشه المدن العراقية عموماً ومدينة الموصل خصوصاً، حيث الوضع الأمني الذي يزداد سوءاً بعد سوء، للدرجة التي جعلته يكون من الأهمية بمكان إعطاءه أولوية في تخطيط المدن في الوقت الحالي بعد ما كان يشكل أهمية ثانوية في ظل وجود مصدر قلق واحد **(اللصوص)** والاعتماد على **(مركز شرطة)** واحد لكل حي سكني لتحقيق الحاجة الأمنية.

هدف البحث:

يهدف البحث الحالي إلى إجراء **مقارنة** منطقية بين النمط التخطيطي (العمراني) السائد في جزء مدينة الموصل القديم، والنمط التخطيطي (العمراني) السائد في جزء المدينة الحديث، من حيث القدرة والكفاءة على تحقيق الأمن لمجتمع ساكنيه.

فرضية البحث:

يفترض البحث انه كلما ازداد تفكك تخطيط المدينة العمراني وانتشرت الشوارع العريضة والمفتوحة والمستقيمة، كلما ضعفت كفاءتها الأمنية. وكلما ازداد تضامن وتكتل تخطيط المدينة العمراني وانتشرت الشوارع الضيقة والمغلقة والمتعرجة، كلما حققت كفاءة أمنية اكبر.

تحديد المصطلحات:

- **الكفاءة الأمنية:** أي قدرة التخطيط العمراني للمدن على توفير الشعور بالأمن لساكنيها.
- **التخطيط الحضري:** عملية الارتقاء بالترتيبات المساحية لأجزاء المدينة المترابطة، وتحسين ظروف البيئة الطبيعية في الموقع الذي بنيت عليه المدينة والمناطق المحيطة بها، في حدود الامكانات المتاحة وتشييد المباني وتخطيط الأحياء والخدمات وإقامة البيئات السكنية المدروسة والملائمة صحياً واجتماعياً وثقافياً لفئات مختلفة من الأفراد، بالشكل الذي تمكنهم من إشباع احتياجاتهم الأساسية (البايولوجية، السايكولوجية، السوسيولوجية) حتى يتمكنوا من أداء أدوارهم المختلفة[٣].
- **الأمن:** ويمكن تعريفه بعدة أوجه (اجتماعية ونفسية) وكما يلي:

١- الشعور بالانتماء إلى الجماعة والمكان وتحقيق ألذات.

٢- الشعور بالسلامة والسلام[٤].

٣- شعور الفرد بالحماية من الأخطار الاجتماعية والعسكرية المحيطة به[٥].

٤- إقصاء الخوف والقلق وتوفير السلامة والطمأنينة[٦].

المبحث الثاني
تخطيط مدينة الموصل القديمة

نبذة تاريخية عن مدينة الموصل:

وتقسم مدينة الموصل الحالية من الناحية (التخطيطية–التاريخية) إلى جزئين، حسب النمط العمراني الغالب،. جزء المدينة القديم **(مركز المدينة الحالي)** ويتمثل بالخارطة التالية *، حيث النسيج العمراني المتكتل والمتضامن–سوى بعض الشوارع التي فتحت منذ بدايات القرن الماضي– والأزقة الضيقة (المتقاربة) والمتعرجة والباقية إلى هذا اليوم.

ويرجع إنشاءها إلى الإمبراطورية الآشورية، إذ أُنشأت على الحصن الذي بناه الآشـــوريين على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وأطلق عليه (حصن عبريا) والذي يسمى اليوم (تل قليعات)[٧]. ولكون المدينة عرضةً لمختلف الطامعين فقد كانت محاطة – كمعظم المدن آنـــذاك– بالأســـوار لأغراض عسكرية دفاعية[٨]، فضلاً عن كون تخطيط المدينة كان قد اتخذ الشكل المستدير– تبدو

* WWW.Google Earth.com

على هيئة نصف دائرة لوقوعها في غرب نهر دجلة – إذ أن الشكل الدائري يسهل عملية المراقبة والحماية ويقتصد بالوقت والتكاليف اللازمة لها[٩].

وبقيت المدينة حيزاً يحيط أطرافها السور القديم، حتى بدء الهدم به عام ١٩١٤[١٠]، وذلك لانتفاء القيمة التحصينية للسور، فضلاً عن الزيادة السكانية للمدينة. حتى هدم السور كلياً عام ١٩٣٤[١١]، مما سمح للمدينة أن تمتد بمختلف الاتجاهات خلال السنوات التي تلتها، بالشكل الذي دفع الجهات التخطيطية المسؤولة إلى إجراء المحاولات التخطيطية للسيطرة على توسع المدينة، معتمدين في اغلبها على الكوادر التخطيطية الأجنبية[١٢].

وعليه يمكن القول أن اصل تخطيط مدينة الموصل القديمة كان قائماً على أساس **دفاعي (لتوفير الأمن)** لحدودها الخارجية، وتعزز هذا التوجه في النسيج العمراني الداخلي، الذي بقي قائماً حتى وقتنا الحاضر.

الشكل العمراني لمدينة الموصل القديمة:

حاول الإنسان منذ لحظة خلقه تطويع الظروف الطبيعية المحيطة به لصالحه بطرق مختلفة، كان منها – بمرور الوقت – تخطيط البيئة العمرانية لمناطق سكناه، حيث أن التخطيط العمراني هو وليد المكان والزمان والحاجة[١٣]، وأنها تعبير بامتياز عن الهوية التي هي بجوهرها القيم الاجتماعية المشتركة[١٤]، فكثيراً ما يقال أن " العمارة هي اتوغراف الحالة الاجتماعية والاقتصادية " فمن صورة العمارة لأي مدينة يمكن استقراء الخصائص الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لهذا المجتمع[١٥].

فكانت لهذه الأسباب، فضلاً عن الحاجة الملحة لتوفير البيئة الآمنة، أن دفعت الإنسان الموصلي إلى تخطيط مدينته بشكل يتناسب ومتطلباته (الاجتماعية والحياتية والأمنية) فكان تخطيط مدينة الموصل بالشكل التالي:

أولا: التكتل العضوي للنسيج الحضري:

فقد اتسمت الهيئة العمرانية لمدينة الموصل بالترابط العضوي المتمثل بتجمع المباني وملاصقة بعضها الأخر بجدران مشتركة لا يفصلها في معظم الأحيان سوى الطرق والأزقة الضيقة[١٦]، كما أن توزيع التركيب الفضائي لمدينة الموصل–الذي يشمل الكتل الصلبة (الأراضي المبنية) والفراغات (الأراضي الشاغرة)–فيمكن القول أن كل منها متفاعل مع الأخر، بالشكل الذي نتج عنه ترابط وتفاعل متميز للنسيج الحضري وملائم لطبيعة وقياسات استعمالات الأرض والبيئة المناخية، فضلاً عن الأثر الأكبر من الناحية الاجتماعية فيما يتعلق بزيادة الروابط

الاجتماعية فيما بين السكان[١٧]، كما اغتنى إلى أقصى الحدود بالناحية التراثية[١٨]، واستمر هذا الشاهد الحضاري إلى يومنا باستثناء بعض الشوارع التي فتحت (مثل شارع نينوى والفاروق وغازي)، حيث كان من الضروري استحداث مثل هذه الشوارع لتلائم التطورات والتغيرات (التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية) في البلد. فالتكتل العالي الذي اتسم به الإطار العمراني لمدينة الموصل لا يعني اكتظاظ السكان – الذي قدر بحدود (٩٨٠٠٠) نسمة حسب إحصاء دائرة النفوس العراقية للفترة (١٩٢٢– ١٩٢٤) وبمساحة (٢١٥) هكتار، أي بكثافة (٤٥٥،٨) نسمة في الهكتار الواحد، وهذه النسبة تعد من الكثافات السكانية العالية جداً[١٩]–بل أنها ترمز إلى الاحتوائية التي تعني عمرانياً اقتراب proximity الناس والأشياء بعضهم من بعض، وهي ترمز إلى الرغبة والإرادة في توليد الوحدة الاجتماعية، وحيثما يكون الاقتراب شديداً يتحقق الحضور المشترك وتسود الألفة والمودة لان الاقتراب من الأشياء والبشر يزيد المودة بينهما[٢٠]، وهذه المودة تعني بالضرورة علاقات اجتماعية قوية بين أفراد المجتمع وشعور بالانتماء للمكان والجماعة، وهذا ما يولد حالة من شعور الفرد بأنه مقبول اجتماعياً، وهو معنى إحساس الفرد بالأمن والطمأنينة[٢١]. وهو ما عناه كل من سوركن Sorokin و زمرمان Zimmerman في التمييز بين صيرورة العلاقات الاجتماعية (الأولية والثانوية) من خلال المهنة[٢٢]، إذ أن قوة العلاقات الاجتماعية تعتمد على الاقتراب المكاني (الفيزيائي) بين الأفراد ضمن المهنة الواحدة، فكيف الحال إذا كان الاقتراب المكاني لفترة زمنية قد تمتد إلى عقود.....؟

كما أن مدينة الموصل انقسمت في حالها إلى عدة محلات سكنية وفقاً لعوامل "دينية و أثنية و قرابية" عرفت بأسماء ساكنيها أو ديانتهم، فهناك محلات خاصة بالمسيحيين سميت بمحلة النصارى "الميدان والمياسة" ومحلة اليهود "الأحمدي" في حين انقسمت محلات المسلمين إلى مجموعة من المحلات حسب انحداراتهم القبلية التي قصدت مدينة الموصل إبان الفتح الإسلامي..... وكان على ساكني هذه المحلات مسؤولية إدارتها أمام الحكومة القائمة، ولا يسمح للغرباء ببناء المساكن أو شرائها ضمن حدود المحلة[٢٣].

وقد استمر عدد كبير من أفراد هذه العوائل بالسكن في نفس المنطقة إلى الوقت الحالي، وهذا ما يوحي للفرد بالأمن والطمأنينة على اعتبار انه يعيش ضمن عائلته الأكبر، بالشكل الذي يصبح الشخص الغريب **(اللصوص وعصابات الخطف والقتل)** مميزاً عن سواه من الأقارب و الأصدقاء القادمين من خارج المنطقة السكنية.

ثانياً: المنظومة الحركية (الأزقة والشوارع):

تمتلك مدينة الموصل القديمة منظومة حركية متشعبة وواسعة أخذت شكلها من تخطيط المدينة العضوي المتكتل، فأصبحت أشبه بالشجرة الكبيرة ذات التفرعات الكثيفة التي تمتد في كل الاتجاهات[٢٤]. وتتمثل هذه المنظومة بمجموعة الأزقة والطرق الضيقة "المتقاربة" والمتعرجة التي يقل عرضها في بعض الأحيان عن المتر الواحد متخذةً عدة أشكال:

ـ الأزقة غير النافذة " Col – De – Sac " الجيبية: وهي عبارة عن ممرات، عادةً ما تكون ضيقة وقصيرة ومنغلقة، تنتشر في الكثير من مناطق المدينة القديمة، إذ توفر مداخل لإحدى أو عدد صغير من الوحدات السكنية، وترتبط مع الطرق الأكثر اتساعاً وطولاً (كما في الشكل الأتي):

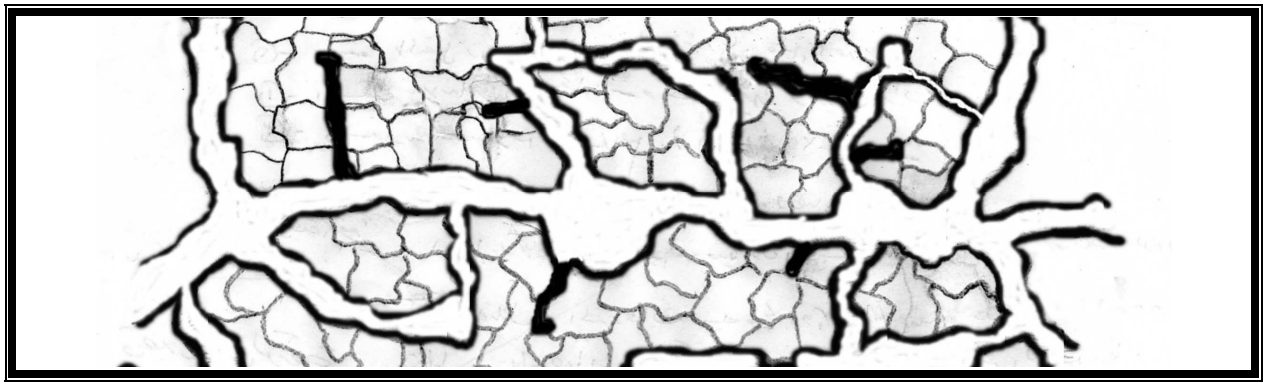

٢ـ الأزقة الحلقية "loop ": تلك الطرق التي تحيط بمجموعة اكبر من الوحدات السكنية، إذ ينتهي عندها الأزقة غير النافذة، ويكون لها مدخل ومخرج غير نافذ (كما في الشكل الأتي):

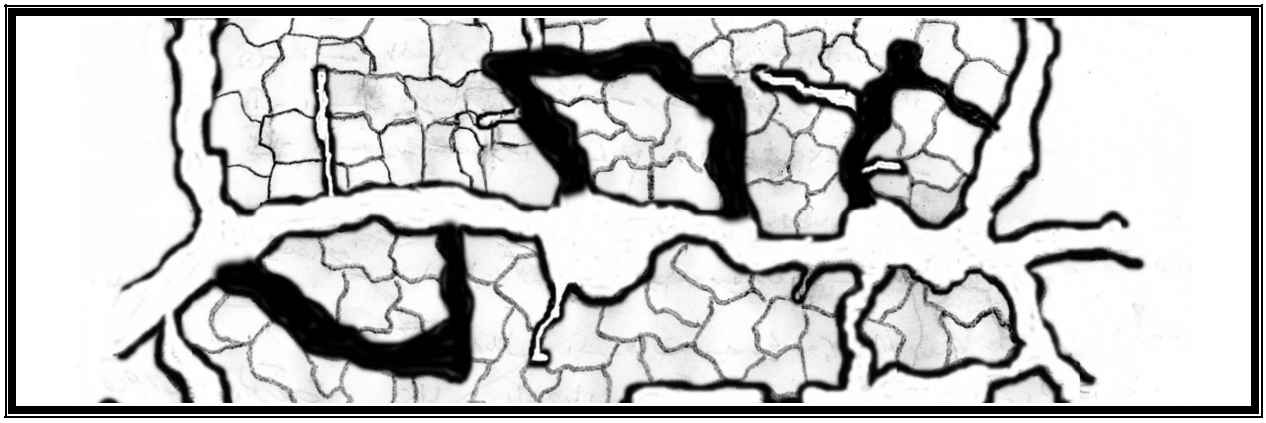

٣ــ الفناءات المفتوحة " open space ": وتتخلل المنظومة الحركية فــضاءات مفتوحــة أو فسحات أو استراحات، تتشكل عند التقاء أكثر من زقاق (كما في الشكل الأتي):

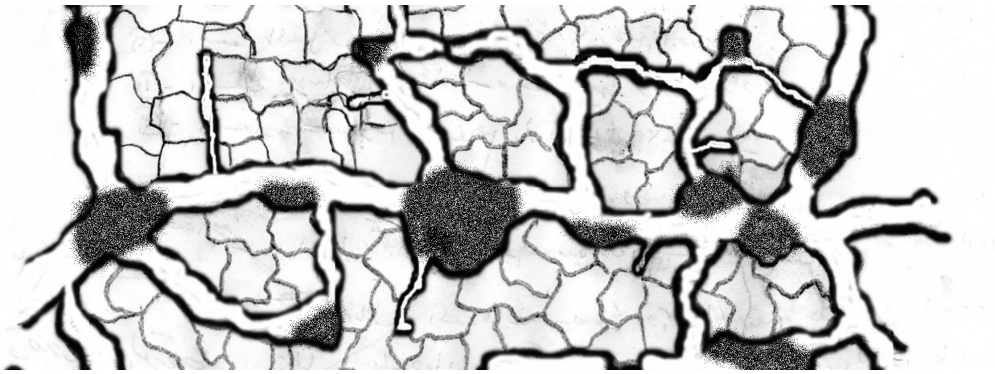

وقد لعبت المنظومة الحركية في مدينة الموصل دوراً في تحقيق الكثير من الأهــداف التــي خطت من اجلها وذلك

من خلال الوظائف التي قدمتها، وأهمها:

أ- الوظيفة الأمنية: بما أن تخطيط المدينة القديمة قائم على أساس دفاعي – كما سبق ذكره – فان الوظيفة الأمنية للمنظومة الحركية فبها عملت من خلال:

١- تحقيق مبدأ الخصوصية Privacy: وتعد من أهم حاجات النفس الأساســية للبــشر، وهــي مرتبطة راتباطاً وثيقاً ببقية الحاجات النفسية مثل الكلية وإضفاء الطابع الشخصي[٢٥]، حيث توفر الأزقة بشكل عام والــ(Col – De – Sac) بشكل خاص درجة عالية من الخصوصية تتولد عنها

حالة الشعور بملكية المكان Territoriality نتيجةً لارتباطه النفسي مع ذلك المكان[٢٦] فتتشكل لدى الفرد قناعة للدفاع عنها كمنطقة محظورة على الآخرين.

٢- التقارب المكاني (الفيزيائي) Spatial Adjacent: إن صغر مساحة الزقاق وقصره يعني أن هناك عدد صغير من الوحدات السكنية التي تحويها، وهذا ما يعني حدوث التقارب المكاني الذي يزيد المعرفة بحيث تصبح يقينية وراسخة، وحيثما تبلغ المعرفة هذه الدرجة تصبح العناصر المعروفة مألوفة وتكتسب بعداً ودياً بحيث تتحول الألفة والود إلى تعاطف مشترك[٢٧]، لدرجة أن تصل الإرادة لدى أفراد الزقاق الواحد إلى الإرادة الطبيعية (Natural Will) التي تعني عند تونيز (F.Townies) المرادف السيكولوجي للجسم البشري أو مبدأ وحدة الحياة[٢٨].

٣- توفير فرص للاتصال الاجتماعي Social Contact: تلك الفرص التي توفرها الفناءات المفتوحة ضمن المنظومة الحركية في مدينة الموصل، ففي دراسة (الملا، ٢٠٠٣) عن مدينة الموصل تبين أن % ٩٩ من مجموع العينة في مدينة الموصل القديمة أكدوا على وجود فرص للاتصال الاجتماعي بين أبناء المحلة الواحدة، إذ كان للأزقة التي تتخللها الفناءات المفتوحة دوراً كبيراً في تحقيق هذه النسبة[٢٩]، الأمر الذي ينعكس على تعزيز المعرفة وتقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد مجتمع المدينة القديمة.

كما عمدت مدينة الموصل القديمة بتخطيطها المتكتل ومنظومتها الحركية المتشابكة على منع أو عرقلة حركة (الغرباء) باعتبارهم مصدر قلق، من خلال جعلهم مكشوفين لدى أفراد المدينة، مما يحجم حركته ويسهل مراقبته والسيطرة على النظر من موقع القوة والأمان[٣٠]، مستندين على ضعف معرفته باتجاهات الأزقة المتعرجة ومؤداها، فضلاً عن أن المدرعات والسيارات العسكرية الأمريكية باتت من المحال أن تدخل إلى هذه المناطق بسبب حجمها الكبير، بحيث أصبحت تشكل مصدر قلق للجيش الأمريكي عند الاقتراب منها *، وما يتبعها من سيارات مفخخة وعبوات ناسفة التي عادةً ما تزرع على الطرق التي يمر فبها جيش الاحتلال الأمريكي وارتال الفوات الحكومية، كما أن التكتل العضوي لتخطيط المدينة جعل من الصعوبة بمكان أن تحدث فيها المواجهات بين قوات الاحتلال ورجال المقاومة، مما يجعل المدينة القديمة بمأمن عن ما تسفره مثل هذه المواجهات من زعزعة للأمن في المناطق التي تتكرر فيها، وهذا ما يؤكد صحة فرضية البحث.

*** مقابلات شخصية مع بعض ساكني جزء المدينة القديم.**

ب – الوظيفة البيئية: إن وجود الأزقة الضيقة والمتعرجة في المدينة القديمة ساعد وبشكل مباشر في التقليل من سرعة هبوب الرياح وانكسارها وخاصةً المتربة منها، مما ساعد على تنقية الهواء الداخل إلى المدينة، فضلاً عن أن ضيق المساحة يجعل الظل يغطيها في معظم أوقات النهار وخاصةً في فصل الصيف فيجنبها أشعة الشمس القوية[٣١]. كما أن وجود الفناءات أو الفسحات ضمن الزقاق الضيق يعمل على زيادة أشعة الشمس دون بقية أجزاء الزقاق فيتخلخل الضغط الجوي، مما يؤدي إلى تحريك تيارات الهواء الباردة من مناطق الضغط العالي إلى مناطق الضغط المخفض.

جـ – سهولة الوصول (Accessibility): وتعد المنظومة الحركية في مدينة الموصل القديمة فعالة وملائمة لحركة ألمشات والحيوانات والعربات الخشبية التي كانت تمثل وسائط النقل الرئيسية آنذاك[٣٢].

المبحث الثالث

تخطيط مدينة الموصل الحديثة

بين الأمس واليوم نجد المشهد الحضري لمدينة الموصل في تمايز واضح، فمن المدينة التقليدية (قلباً وقالباً) ينتقل الناظر إلى صخب المدينة الحديثة والواسعة المساحة " بالمقارنة " كما في الخارطة التالية.

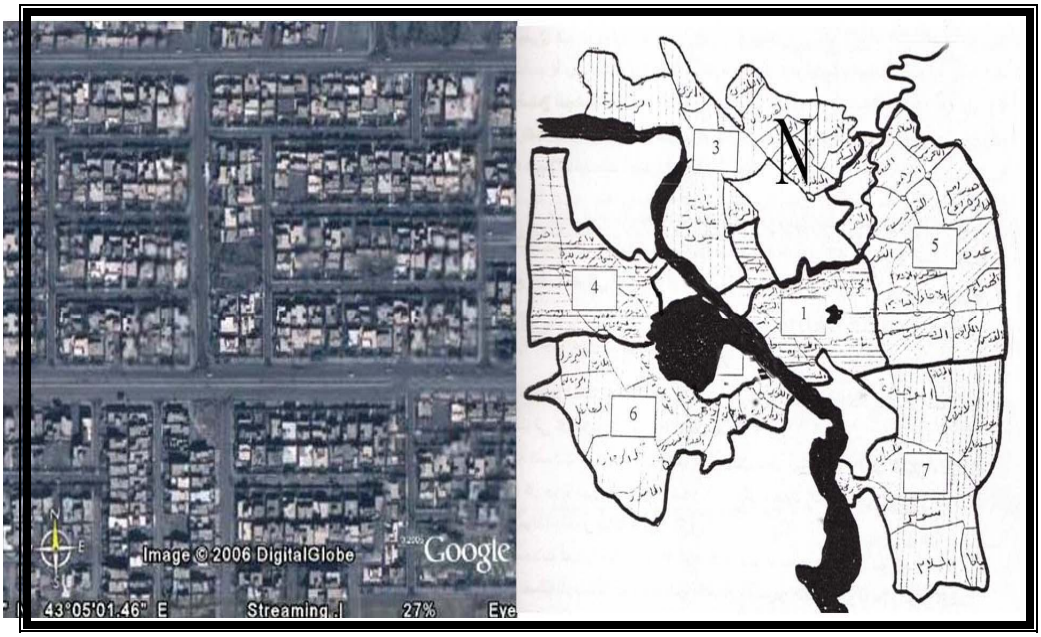

إذ يمتاز تخطيطها العمراني–**في معظم أجزائها**–بتفكك النسيج العمراني (التباعد) والشوارع العريضة والنافذة والمستقيمة، ولم يكن ليحدث ذلك جراء سبب واحد بل تضافرت مجموعة من الأسباب غيرت (حجم وشكل المدينة) يمكن تلخيصها بالتالي:

١ـ الزيادة السكانية:

ـ الطبيعية (الولادات).

ـ الهجرة الوافدة (من داخل البلد أو من خارجه). وما تولده هذه الزيادة من حاجة أكبر للسكن (أي تطلب توسيع رقعة المدينة).

٢ـ اكتشاف النفط: ودخول العراق إلى سوق النفط العالمية، وتأميمه عام ١٩٧٢، أحدث انتعاش اقتصادي انعكس على (حجم الصناعات، وحجم السوق، وطرق ووسائل النقل) وبالتالي حجم المدن العراقية ومنها مدينة الموصل.

٣ـ التطور التكنولوجي: وخاصةً في مجال النقل، ودخول السيارة ، تطلب تغيير ضروري في هيكلية المدينة، نظراً لحاجها إلى الطرق العريضة والسريعة والمفتوحة، ووفقاً لهذه المتطلبات جرت خطط المدن الحديثة ومنها مدينة الموصل.

٤ـ الثورات والانقلابات: توالت حكومات عديدة على البلد، كانت معظمها تولي للمدن وتطورها أهمية كبيرة، خاصةً في الفترة الأولى من حكمها.

٥ـ التغير الاجتماعي: إن تنامي التغير في عناصر التكوين ألبنائي لمجتمع مدينة الموصل–الذي شمل التنظيم الطبقي الاجتماعي–ونشوء المؤسسات الحضارية التي لم تكن معروفة في المجتمعات التقليدية[٣٣] وأثارها البالغة على قوة التماسك الاجتماعي، دعا إلى بروز قيم غريبة على النمط التقليدي للأفراد ومنها الرغبة في الاستقلال (السكني، الاقتصادي...الخ) عن العائلة وانتشار الأسر النووية التي ولدت الحاجة الملحة للسكن (أي توسيع المدينة).

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى **إعادة تأهيل تخطيط (الجزء القديم)** من المدينة ووضع **تصميم أساس*(للجزء الجديد)** بغية توجيه وتنظيم التوسع المطلوب في منظور تخطيطي حديث. ولعدم توفر الكوادر التخطيطية المحلية المؤهلة لمثل هذه المهمة، استعانت الجهات التخطيطية

---

* يعد التصميم الأساس جزء من التخطيط الحضري، يهتم بوضع التصاميم المطلوبة للفراغات والكتل وتحديد التفاصيل على مستوى المبنى(٣٤).

المسؤولة- **في الغالب وخاصةً المنفذة منها**- بالخبراء والشركات الأجنبية للقيام بهذه المهمة، وكما يلي:

١ـ أنجز عام ١٩٣٠ تصميم أساس أولي-الأول من نوعه-يكاد يكون أولى التصاميم الأساسية الممارسة على المدن العراقية[٣٥].

٢ـ إنجاز دراسة تمهيدية لإعداد تصميم أساس للمدينة عام ١٩٥٤ من قبل الخبيرين راكلان Raglan وسكوير Squire.

٣ـ التصميم الأساس الذي أعدته الجهات التخطيطية المسؤولة في مدينة الموصل عام ١٩٦١[٣٦].

٤ـ تصميم الخبير كافكا B. Kafka عام ١٩٦٧، الذي لم يرى النور لأسباب تتعلق بالسياسة السكانية[٣٧].

٥ـ تصميم مديرية التخطيط العامة سنة ١٩٦٩ ولغاية ١٩٨٠، إلا أنها لم تنفذ حتى النهاية[٣٨].

٦ـ تصميم شركة SCET International الفرنسية فقد تم عقد اتفاقية بين وزارة البلديات وهذه الشركة في ١٦ نيسان ١٩٧٣ وبالتعاون مع دار العمارة للاستشارات الهندسية للقيام بدراسة تقويم خطة التطوير العمراني لمدينة الموصل حتى عام ٢٠٠٠، وقد بدأ العمل به عام ١٩٧٤[٣٩] وتم إنجازه عام ١٩٧٦.

وقد أوصت كل هذه الدراسات بضرورة المحافظة على الجزء القديم (التقليدي) من المدينة- سوى فتح بعض الشوارع المهمة-على اعتبار انه يمثل جزء من تراث المدينة الحضاري، كما حققت-وخاصةً المنفذة منها-فوائد عظيمة حسبت لصالح مدينة الموصل وعلى عدة أصعدة:

١-توفير جزء كبير من الحاجة السكنية وخاصةً للأسر النووية.

٢-تنظيم الأسواق والمخازن والمحلات التجارية من خلال مجموعة من القوانين التي تحدد حجم وموقع ونوع العمل الذي تمارسه.

٣-توفير خدمات البنى الارتكازية " Infrastructure " من ماء وكهرباء ومجاري، وتوصيله إلى معظم أحياء المدينة.

٤-فتح الشوارع العريضة والطرق السريعة، حقق قدر اكبر من سهولة الوصول "Accessibility

وخاصةً بعد دخول السيارة، فضلاً عن تحقيق العزل بين السابلة ونهر الشارع، تولد أماناً مرورياً لا بأس به.

٥-إخراج المصانع والمعامل-التي تزيد من التلوث البيئي " Environment Pollution "- خارج حدود التصميم الأساس للمدينة وتوجيهها وفقاً لاتجاه الرياح، فضلاً عن تخصيص مناطق خضراء تكون بمثابة رئة تتنفس منها المدينة.

٦-كما ازدادت أهمية مدينة الموصل بعد فتح جامعة الموصل كمركز إشعاع فكري وحضاري، وإنها أصبحت من المراكز السياحية المهمة في القطر يرتادها الناس من مختلف المحافظات الأخرى، فأصبحت تحتل مكانة متميزة من بين مدن العراق(٤٠).

أما فيما يخص **البعد الاجتماعي**، فقد حاولت التصاميم الأساسية التي خططت لمدينة الموصل تخصيص كم من العناصر المكانية داخل المدينة بغية تحقيق هذا البعد، تمثلت بمحاولة توفير الخدمات الاجتماعية " Social Services "، وتأتي أهمية توفير هذه الخدمات ليس فقط من دورها في إشباع حاجات السكان، بل من خلال فسح المجال أمامهم للاتصال والتفاعل الاجتماعي الناجم عن ألاستخدام المشترك لتلك الخدمات، وأهمها (الخدمات التعليمية، الصحية، الترفيهية، التسوقية)(٤١)، إلا أن عدم تنفيذ اغلب هذه الخدمات اضعف هذا البعد التخطيطي المهم، فأصبحت عاملاً مؤثراً في إضعاف مجمل العلاقات الاجتماعية بين السكان، في ظل انتفاء الشروط التي حددها فيشر " Fischer " والتي تجعل العلاقات الاجتماعية تأخذ شكلاً أولياً، في الوقت الذي تتوفر في الجزء القديم-كما تقدم في المبحث الثاني-وهذه الشروط هي(٤٢):

***الضرورة الوظيفية:** وهي مجموعة المشكلات والحاجات المحلية المشتركة التي يشترك سكان الحي أو المنطقة في مواجهتها والتي من شأنها أن تقوي بينهم روابط العلاقات والاعتماد الوظيفي المتبادل.

* **نوعية العلاقات السائدة:** إن علاقات الجوار قد تتأثر بوجود علاقات أخرى بين الأفراد غير علاقات الجوار كالقرابة أو الاشتراك في نفس الجماعة السلالية أو الدينية.

* **القرب المكاني:** الذي يدعم أو يقوي العلاقات بين الجوار-وبالتالي المجتمع-.

٨-**البعد الأمني:** ولتحقيق البعد الأمني في مدينة الموصل عمدت المخططات الأساسية "**الغربية**" **إلى** اعتماد وسائل الضبط الرسمية من خلال توزيع مراكز للشرطة في كل محلة سكنية، إلا أن:

-ضعف الأداء والفساد الإداري في الوقت السابق.

-غيابها بشكل شبه كلي في الوقت الحاضر.

- تغير وتنوع مصادر القلق (زعزعة الأمن) في المدينة.

أدى إلى توجه الفرد نحو الجماعة المحيطة به-الجيرة بشكل خاص-بغية التماس الأمن المفقود، إلا انه عادةً ما يصدم بواقع اجتماعي يشوبه الفتور والضعف في العلاقات الاجتماعية، والذي يزداد بزيادة درجة تحضر المجتمع نتيجةً لـــ[٤٣]:

* إن مسؤوليات مواجهة الحاجات والمشكلات المحلية للمجاورة في المدن والمراكز الحضرية الكبرى، تقع على عاتق تنظيمات أخرى تعلو المستوى التنظيمي للمجاورة، أمر من شأنه أن يفتت تلك الوحدة التقليدية لجماعات الجيرة.

* إن تعدد جماعات المصلحة والروابط الثانوية وتنوعها في البيئة الحضرية يجعل الفرد في الحيز الحضري غير مرتبط بالضرورة بجماعات الجيرة.

* إن التجاور المكاني للأقارب أمر غير متوفر أو متاح في المدن الكبرى، حيث تلعب قوى السوق والمنافسة في مجال الإسكان دوراً واضحاً في تشتت هذه الجماعات " فيزيقياً ". كما اضطلعت التصاميم الأساسية التي خطت لمدينة الموصل بدور بارز في استفحال ظاهرة انعدام الأمن في معظم مناطق الجزء الحديث وذلك من خلال:

أولاً: تفكك النسيج الحضري:

فقد كان لإتباع التوزيع ألشطرنجي، للوحدات والبلوكات السكنية وفتح الشوارع العريضة والواسعة التي مزقت وحدة نسيجها العمراني، دوراً كبيراً في تأصيل الطابع النفعي في تخطيط المدينة، فضلاً عن أن التنطيق الوظيفي لأجزاء المدينة (مناطق سكنية، مناطق صناعية، مناطق تجارية...الخ) أشاع حالة من السلوك الإجرائي المؤقت، الأمر الذي يقلل من نسبة ارتياد هذه المناطق وغياب الحضور الاجتماعي، بكلمة أكثر وضوحاً ظهور الصحاري الاجتماعية بحسب (Bill Hillier) التي توحي للفرد بالعزلة وفقدان الأمن، وفي مثل هذه الحالة لا يتحقق التفاعل الاجتماعي الذي هو أساس الاندماج والانخراط في الحياة الاجتماعية المشتركة[٤٤]، وأخيراً يفقد الفرد حالة الشعور بالانتماء الذي يعد شكلاً من أشكال التضامن الاجتماعي[٤٥]، وهذا ما يجعل تقديم المساعدة المتوقعة من قبل أفراد وحدة الجيرة-في المناطق الحديثة-تكون في أدناها، خاصةً في حالة مداهمة أحدى الأسر خطر عصابات الخطف والقتل أو اللصوص، في ظل ضعف إمكانية سماع نداءات الاستغاثة الناتج عن التباعد المكاني الغالب بين وحدات الجيرة. وذلك ما أكدته دراسة (الملا، ٢٠٠٣) عن مدينة الموصل، من أن أعلى نسبة ممن يعرضون عن تقديم

المساعدة(البسيطة) كانت في جزء المدينة الحديث[٤٦]، فكيف الحال إذا كانت المساعدة تنطوي على درجة عالية من الخطورة...؟

ثانياً: المنظومة الحركية:

وفيما يتعلق بشبكة الطرق والشوارع في الجزء الحديث من المدينة، التي لعبت دوراً ناجحاً (اقتصادياً و عملياً) في خدمة ساكنيها، إلا أنها أظهرت **ضعفاً أمنياً** واضحاً، من خلال دورها في تمزيق البنية العضوية للنسيج الحضري وبالتالي البنية الاجتماعية، وإسهامها في تعزيز أسباب القلق لدى المجتمع من خلال:

١ــ الأزقة النافذة: السائدة في الجزء الحديث من المدينة، التي أصبحت مرتعاً لمن هب ودب من الغرباء (مصدر قلق)، وعملت على تجريد وحداتها السكنية من **الخصوصية** التي تعد من ضروريات نجاح التخطيط الحضري للمدن **اجتماعياً**.

٢ــ الشوارع العريضة: التي تعد ممراً سريعاً ومناسباً للمدرعات والسيارات العسكرية الأمريكية، التي تشكل مصدر قلق لساكني الوحدات السكنية الواقعة على هذه الشوارع..

٣ــ نفس الشوارع العريضة، تعد البيئة الصالحة لزرع العبوات الناسفة والسيارات المفخخة، فضلاً عن المواجهات المسلحة التي تزيد من حالة الشعور بفقدان الأمن لأفراد مجتمع المنطقة، **وهذا ما يؤكد صحة فرضية البحث.**

وخلاصة القول أن ما تقدم، لا يعني أن تخطيط مدينة الموصل في جزئها الحديث، تخطيطاً غير ناجح، بل انه حقق نجاحاً جيداً–وخاصةً قبل الاحتلال، بالمقارنة مع تخطيط الجزء القديم– على البعد (الاقتصادي، الخدمي، الترفيهي، سهولة الوصول...الخ)، إلا انه أهمل الجانب الاجتماعي–نتيجةً للقوالب الغربية الجاهزة–الذي يعد أحد الركائز الأساسية للشعور بالأمن والطمأنينة، خاصةً ونحن نعيش هذه الفترة الحرجة المليئة بالمخاطر ومصادر القلق، تلك المخاطر التي تحصن من معظمها تخطيط الجزء القديم من مدينة الموصل، والذي حقق قدراً اكبر من الشعور بالأمن والطمأنينة لمجتمعه، بالرغم من ضعف قدرته في الوقت الحالي على تلبية حاجات المجتمع الحديث (الاقتصادية، الخدمية، سهولة الوصول...الخ).

*** نتائج البحث:**

من خلال ما تم عرضه في البحث يمكن أن نوجز أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وكما يأتي:

١-إن تخطيط مدينة الموصل القديمة حقق بعداً اجتماعياً عالياً منذ تأسيسه وحتى وقتنا هذا، وذلك لان تخطيطه كان على أيدي أبناءه وساكنيه وتعبيراً عن ثوابت الفرد الموصلي الاجتماعية.

٢-إن نجاح جزء المدينة القديم اجتماعياً نتج عنه كفاءةً أمنية عالية، من خلال ما وفره من فرص جيدة للتفاعل الاجتماعي.

٣-على الرغم من تحقيق الجزء القديم من المدينة نجاحاً (امنياً واجتماعياً)، إلا انه اظهر ضعفاً واضحاً - وخاصةً في الوقت الحاضر-على المستوى (الاقتصادي والخدمي والسكني وسهولة الوصول...الخ).

٤-على الرغم من نجاح -بالمقارنة-تخطيط الجزء الحديث لمدينة الموصل (اقتصادياً وخدمياً وسكنياً وسهولة الوصول...الخ)، إلا انه اخفق في تحقيق نجاحاً على المستوى الاجتماعي، وذلك لسببين رئيسيين:

-القوالب التخطيطية الغربية الجاهزة التي لا تدرك الأبعاد الاجتماعية للمجتمع الموصلي.

-إن معظم ما تم تخصيصه من مساحات لتحقيق التفاعل الاجتماعي في الجزء الحديث من (حدائق عامة ومنتزهات وأندية ومكتبات...الخ) لم يتم تنفيذه إلى الآن.

٥-إن عدم نجاح الجزء الحديث على المستوى الاجتماعي انعكس بشكل سلبي على كفاءته الأمنية، وذلك من خلال:

- ضعف العلاقات الاجتماعية بين أعضاء مجتمعه، والتي تعد الركيزة الأساس للشعور بالأمن.
- الشوارع النافذة والعريضة التي فككت التضامن العضوي للمدينة وسهل حركة قوات الاحتلال والغرباء، رافقه انتفاءً لمبدأ الخصوصية الذي يعد احد الشروط الأساسية لتحقيق الكفاءة الأمنية.

٦-وأخيراً يمكن القول أن تخطيط مدينة الموصل قد حقق:

-في الجزء القديم، **كفاءة أمنية واجتماعية** أفضل

-في الجزء الحديث ، **كفاءة اقتصادية وخدمية وسكنية وسهولة وصول..... الخ** أفضل.

*** التوصيات والمقترحات:**

١-إعادة تأهيل تخطيط جزء المدينة القديم بما يعزز قدرته على تلبية حاجات ساكنيه (اقتصادية وخدمية وسكنية وسهولة وصول...الخ) من جهة، ويحفظ كفاءته الأمنية والاجتماعية من جهة أخرى.

٢-الدعوة إلى الاعتماد على الكوادر المحلية أو العربية أو الإسلامية في تخطيط مدننا.

٣-إعادة تأهيل تخطيط جزء المدينة الحديث (أمنياً واجتماعياً)، وذلك من خلال تنفيذ ما تم تخصيصه للجانب الاجتماعي والأمني، فضلاً عن إعادة النظر في هيكلها التخطيطي بشكل عام.

٤-استلهام الدروس الأمنية والاجتماعية المستقاة من تخطيط جزء المدينة القديم وتطبيقه بشكل عصري عند تخطيط أو إعادة تأهيل المدن.

٥-إجراء دراسة تخطيطية متكاملة ترسم آليات إعادة تأهيل المدينة بجزءيها (القديم والحديث) بما يرأب الصدع الحاصل في الجزئين.

*** الهوامش:**

(١)حسن الخياط، " المدينة الخليجية: إشكالية الاصالة والمعاصرة في التخطيط والعمارة "، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، العدد العاشر، ١٩٩٨، ص ٣٧.

(٢)هادي العنبكي، الأبعاد الاجتماعية للتخطيط العمراني في الوطن العربي، سلسلة المائدة الحرة، مطبعة اليرموك، ١٩٩٩، ص ٨.

(٣)حسين عبد الحميد رشوان، المدينة " دراسة في علم الاجتماع الحضري "، الطبعة الثانية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٢١١.

(٤)جلال عزيز البدراني، الأمن النفسي وعلاقته بالتوجه الزمني لدى طلبة جامعة الموصل، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٣، ص ٦.

(٥)علي سعد، مستويات الأمن النفسي لدى الشباب الجامعي (بحث ميداني حضاري مقارن)، مجلة دمشق، العدد ١، المجلد ١٥، ١٩٩٩، ص ١٦.

(٦)كامل جاسم المرياتي، مفهوم الأمن الاجتماعي في الفكر السوسيولوجي، ندوة فكرية (قسم الدراسات الإنسانية)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٩٧، ص ٨.

(٧)سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، الجزء الأول، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٢، ص ٩.

(٨) احمد قاسم الجمعة، أصالة النظام الاقتصادي في تخطيط مدينة الموصل ومبانيها خلال العصور العربية الإسلامية، دورة أصالة أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص ٧-٨.

(٩)المصدر نفسه، ص ٥.

(١٠)داوؤد سليمان عجاج، خطط مدينة الموصل منذ مطلع القرن العشرين، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد ٥، دار الكتب للطباعة والنشر، ص ٢٤٣.

(١١)نفس المصدر، ص ٢٤٣.

(١٢)يوسف حامد الملا، الضوابط الاجتماعية في إعداد التصاميم الأساسية في مدينة الموصل، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي، جامعة بغداد، ٢٠٠٣، ص ٦٤.

(١٣)حسن الخياط، مصدر سابق، ص ٣٧.

(١٤)هادي العنبكي، مصدر سابق، ص ٧.

(١٥)حسن الخياط، مصدر سابق، ص ٤٤.

(١٦)احمد قاسم الجمعة، مصدر سابق، ص ٩.

(١٧)حيدر كمونة، أهم العناصر التخطيطية والمعمارية لمكونات المدينة العربية القديمة، دورة أصالة أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص ٢.

(١٨)داوؤد سليمان عجاج، مصدر سابق، ص ٢٥١.

(١٩)المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٢٠)هادي العنبكي، مصدر سابق، ص ١٠ - ١١.

(٢١)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ٦١.

(٢٢)محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون، ص٨١.

(٢٣)عبد الله مرقس رابي، التحضر في مدينة الموصل، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٥، ص ١١٤.

(٢٤)داوؤد سليمان عجاج، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(٢٥)إيمان علي النقيب، الإسكان العالي الكثافة ضمن السلوكية للمجتمع العراقي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة بغداد، ١٩٩٣، ص ٢٢.

(٢٦)Lang. J , "Creating architectural theory: The role behavioral sciences in environmental design" , Van No strand Reinhold com , London , ١٩٨٧ , P.١٤.

(٢٧)هادي العنبكي، مصدر سابق، ص ١١.

(٢٨)محمد عاطف غيث، مصدر سابق، ص ٥٠.

(٢٩)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ١٨٩.

(٣٠)فليب اواديس بولاديان، الفضاءات الحضرية المفتوحة في المدينة العربية التقليدية، دورة أصالة أنظمة المدينة العربية، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٨٨، ص٨١.

(٣١)حسن الخياط، مصدر سابق، ص ٣٧.

(٣٢)داوؤد سليمان عجاج، مصدر سابق، ص ٢٤٦.

(٣٣)عبد الله أبو عياش و اسحق يعقوب القطب، الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٩١.

(٣٤)مازن زهدي النابلسي، التصميم الحضري وأثره على البيئة، وجلة المهندس الأردني، العدد ٦٧، السنة ٣٤، آب، ص ٥٤.

(٣٥)داوؤد سليمان عجاج، مصدر سابق، ص ٢٥١.

(٣٦)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٣٧)محمد امين المازني، تطور المدينة العراقية المعاصرة، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٦، ص ١٨.

(٣٨)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٣٩)من تقرير

SCET International,Mosul master plan–comprehensive analysis report , Ministry of Municipalities.

(٤٠)عبد الله مرقس رابي، مصدر سابق، ص ١١١.

(٤١)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ٥٤.

(٤٢)السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٣٦.

(٤٣)نفس المصدر، ص ٣٣٦.

(٤٤)هادي العنبكي، مصدر سابق، ص ١٣.

(٤٥)يوسف حامد الملا، مصدر سابق، ص ٢٠١.

(٤٦)نفس المصدر، ص ٢٠١.